(نور الدين محمود بن محمود بن زنكي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتقين تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتقترب بها من عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه.

وقال الإمام أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم وأخلاقهم.

وقال الإمام الجنيد: الحكايات جند من جنود الله يقوي بها إيمان المريدين، فقيل له: هل لذلك من دليل، قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [يوسف:120].

لكل ماسبق، أبدأ معكم اليوم -أيها الإخوة- سلسلة خطب جديدة عنوانها: "**أعلام من الشام**"، أحدثكم في كل خطبة منها عن واحد من أعلام هذا البلد التقي المرابط المبارك الكريم الصابر، عن عَلِمَ ولِدَ هنا أو مرَّ من هنا فعاش حقبة من الزمن أوتوفاه الله في هذه البلدة، والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

وحديث اليوم عن السلطان الشهيد، والملك العادل، صاحب الشام، تقي الملوك، ليث الإسلام:

(نُوْر الدِّيْنِ مَحْمُوْد بنُ مَحْمُوْدِ بنِ زِنْكِي)

ولد سيدنا نور الدين في حلب سَنَة إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِ مائَةٍ، وأصله من الترك وتربى في حضن أبيه وتعلّم القرآن والفروسية، وكان شهماً شجاعاً ذا همة عالية وحرمة وافرة وديانة بينة، تملَّك حلب بعد استشهاد أبيه فوضع همه في توحيد المسلمين في دولة واحدة وطرد الافرنج من بلاد الشام.

افتتح ملكه بحمل راية العدل والجهاد.

أما العدل: فمن تمسكه به بَنَى دَار العَدْل، وَأَنْصَفَ الرَّعِيَّة حتى من نفسه لعلمه أن العدل أساس الملك وأن الظلم مؤذن بخراب العمران.

ذكروا أن رجلاً ادعى على السلطان نور الدين عند القاضي الشهرزوري فأرسل القاضي للسلطان للحضور إلى دار العدل فأجاب وأرسل للقاضي أن لا تعاملني إلا معاملة الخصوم، فحين وصلا وقف السلطان نور الدين مع خصمه بين يدي القاضي حتى انفصلت الخصومة والحكومة، ولم يثبت للرجل على السلطان حق، فلما تبين ذلك قال السلطان: إنما جئت لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دعي إليه، فإنا معاشر الحكام أعلانا وأدنانا تابعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولشرعه، وأنا أعلم أنه لا حقَّ للرجل عندي، ومع هذا أشهدكم أني قد أعطيته ذلك الذي ادعى به ووهبته له.

هذا شيء من عدله، دعا المؤرخ الجهبذ ابْن الأَثِيْرِ إلى القول: (طَالعتُ السِّيَر، فَلَمْ أَرَ فِيْهَا بَعْد الخُلَفَاء الرَّاشدين وَعُمَر بن عَبْدِ العَزِيْزِ أَحْسَنَ مِنْ سِيرته، وَلاَ أَكْثَر تَحَرِّياً مِنْهُ لِلْعدل).

وأما جهاده: فقد قَالَ أَبُو الفَرَجِ ابْنُ الجَوْزِيِّ: (جَاهدَ، وَانتزعَ مِنَ الكُفَّارِ نَيِّفاً وَخَمْسِيْنَ مَدِينَةً وَحِصناً).

ومن ذلك أن الصليبيين حاصروا دمشق فنزلت جيوش الإفرنج في المزة وكان مخيم الألمان في الملعب البلدي –أرض المعرض– وخيمة ملك فرنسا في الميدان، فهبت دمشق ولدمشق المؤمنة هبات تَشدَه التاريخ، واستنجد صاحبها بنور الدين في حلب وبأخيه سيف الدين غازي في الموصل فطارا إليه بالجيش وقابلا جيوش الفرنجة وردوهم عن دمشق سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

قَالَ ابْنُ وَاصِلٍ: (كَانَ السلطان نور الدين مِنْ أَقوَى النَّاس قَلْباً وَبدناً، لَمْ يُرَ عَلَى ظهر فَرَس أَحَد أَشدَّ مِنْهُ، كَأَنَّمَا خُلق عَلَيْهِ لاَ يَتحرك).

وكان يقول: (قد تعرضتُ للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك ولو كان فيّ خير ولي عند الله قيمة لرزقنيها والأعمال بالنية)

وقال له يوماً قطب الدين النيسابوري : بالله يا مولانا السلطان لا تخاطر بنفسك فإنك لو قُتلت قُتِل جميع من معك وأُخِذت البلاد وفسد حال المسلمين، فقال له: اسكت يا قطب الدين فإن قولك إساءةُ أدب على الله، ومن هو محمود، من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو، قال فبكى من كان حاضراً.

ومن عجائب قصص جهاده أَنَّه لما حاصر الفِرَنْجَ في دمياط على أطراف مصر وطال حصارهم بقي عِشْرِيْنَ يَوْماً يَصُوْمُ وَلاَ يُفْطِرُ إِلاَّ عَلَى المَاءِ، فَضَعُفَ وَكَادَ يَتلَفُ، وَكَانَ مَهِيْباً، مَا يَجسُرُ أَحَدٌ يُخَاطِبَه فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ إِمَامُه يَحْيَى: إِنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ يَقُوْلُ: يَا يَحْيَى، بَشِّرْ ثُوْرَ الدِّيْنِ بِرَحِيْلِ الفِرَنْجِ عَنْ دِمْيَاطَ.

فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! رُبَّمَا لاَ يُصدِّقُنِي.

فَقَالَ: قُلْ لَهُ: بِعَلاَمَةِ يَوْمِ حَارِمَ.

وَانتبَهَ يَحْيَى، فَلَمَّا صَلَّى ثُوْرُ الدِّيْنِ الصُّبْحَ، وَشَرَعَ يَدْعُو، هَابَهُ يَحْيَى، فَقَالَ لَهُ: يَا يَحْيَى، تُحَدِّثُنِي أَوْ أُحَدِّثُكَ؟

فَارْتَعَدَ يَحْيَى وسكت، فَقَالَ السلطان: أَنَا أُحَدِّثُكَ، رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَقَالَ لَكَ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ: نَعَمْ، فَبِاللهِ يَا مَوْلاَنَا، مَا مَعْنَى قَوْلِه بِعَلاَمَةِ يَوْمِ حَارِمَ؟

فَقَالَ: لَمَّا التَقَينَا العَدُوَّ يوم حارم، خِفْتُ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَانْفرَدْتُ وَنَزَلْتُ وَمَرَّغْتُ وَجْهِي عَلَى التُّرابِ، وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي مَنْ مَحْمُوْدٌ الكلب، الدِّيْنُ دِيْنُكَ، وَالجُنْدُ جُنْدُكَ، وَهَذَا اليَوْمَ افْعَلْ مَا يَلِيْقُ بِكَرَمِكَ، انصر دينك وجندك ولا تنصر محموداً ومن محمود حتى ينتصر؟

قَالَ: فَنَصَرَنَا اللهُ عَلَيْهِم.

أيها الإخوة:

كان نور الدين محافظاً على الصلوات في جماعة وكان كثير الصلاة بالليل كثير الإبتهال في الدعاء والتضرع إلى الله، يَتحرَّى الحلال فِي القُوْت، وَيَتجنَّب الكِبْر، وَيَتَشَبَّه بِالعُلَمَاءِ وَالأَخيَار بَنَى المِدَارِسَ والجوامع والمساجد بِحَلَبَ وَحِمْصَ وَدِمَشْقَ وَبَعْلَبَكَّ، وَسُلِّمت إِلَيْهِ دِمَشْقُ في زمن الْغلاَءِ وَالخوف، فَحَصَّنهَا، وَوسَّع أَسواقهَا، وَأَنشَأَ المارستَان المعروف بالمارستان النوري وَدَار الحَدِيْث المعروفة بدار الحديث النورية، وَأَبطل المكُوْس والضرائب الجائرة.

وَوَقَفَ عَلَى الضُّعَفَاء وَالأَيْتَام وَالمجَاوِرِيْنَ.ورَوَى الحَدِيْثَ، وَأَسْمَعَهُ بِالإِجَازَةِ.

حَكَى مَنْ صَحِبَه حَضَراً وَسفراً أَنَّهُ مَا سَمِعَ مِنْهُ كلمَة فُحشٍ فِي رِضَاهُ وَلاَ فِي ضَجَرِه، وَكَانَ يُوَاخِي الصَّالِحِيْنَ وَيزُورهُم، رقيق القلب يخاف الله.

ذكروا أن الواعظ أبا عثمان الواسطي وكان من كبار الصالحين أنشد نور الدين أبياتاً فيها تخويف وتحذير شديد يقول فيها:

مثِّل وقوفَك أيها المغرور يوم القيامة والسماء تمور

إن قيل نور الدين رحت مسلماً فاحذر بأن تبقى وما لك نور

أَنَهيتَ عن شرب الخمور وأنت في كاس المظالم طائش مخمور

عطّلت كاسات المدام تعففا وعليك كاسات الحرام تدور

ماذا تقول إذا نُقلتَ إلى البِلى فرداً وجاءك منكر ونكير

ماذا تقول إذا وقفت بموقف فرداً ذليلاً والحساب عسير

وتعلّقت فيك الخصوم وأنت في	يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرَّقت عنك الجنود وأنت في	ضيق القبور موسد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية	يوما ولا قال الأنام أمير
وحُشرت عُرياناً حزيناً باكياً	قلقاً وما لك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبُك دارس	عافي الخراب وجسمك المعمور
مهِّد لنفسك حجة تنجو بها	يوم المعاد ويوم تبدو العور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديداً.

أيها الإخوة:

عاش سيدنا نور الدين محمود زنكي حميداً وتمنى أن يموت شهيداً غير أن الله لم يكتب له الموت في ساح الوغى بل مات على فراشه مع كثرة خوضه المعارك، فكتُبت له النية بإذن الله.

قال المؤرخون: كتب الله له الشهادة بنيته وبألسنة الخلق فهم يلقبونه بنور الدين الشهيد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((مَنْ سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ))** [رواه مسلم].

كانت وفاته بدمشق سنة تسع وستين وخمسمائة، عن عمر زاد على ثمان وخمسين سنة، ودفن في آخر شارع الحريقة، في سوق الخياطين، وأمام قبره اليوم مسجد باسمه رضي الله عنه وأرضاه.

والحمد لله رب العالمين